الدعوة والمحنة

ـ كان الإسلامُ ينتشرُ فى مكة سرًا بين السادة والمَوَالي ، ودخل فى الدين الجديد بعض تجار مكة وأشرافها ممن عرفت نفوسهم الحكمة والرحمة ، وآمن به الضُعفاء والفُقراء . وكان النبى يجتمعُ بهم فى شعَاب مكة يعظُهم ويُرشدهم ويُصلى بهم ، ويتلو عليهم آيات القرآن . وعندما بلغ عدد المسلمين أربعين رجلاً وامرأة اختار لهم النبى صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ابن أبى الأرقم ، وهو من أشراف قريش . فكانت هذه الدار مسجداً لهم يجتمعون فيها بعيداً عن أعين قريش .

وبعد ثلاث سَنوات من الدَّعوة سراً ، نزلَ الوَحْى على النبي أن يَصْدَع بما جاء به ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

ونزل الوحى أيضا بـ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

هنالك أقام النبي الكريم مأدُبَة غَداء فى داره ودعا إليها نحو أربعين رجلاً من بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، حتي إذا فرغوا من طعامهم تأهب النبي لعرض دعوته عليهم .

وما كاد النبى يبدأ كلامه حتى هَبَّ عمه أبو لهب غاضباً ثائراً يقول :

ـ يا مُحمد . . هؤلاء عُمومتك ، وبنو عُمومتك ، وقد علموا بما تُريد أن تقوله . . إن ما تدعو إليه هو خُروج وردَّةٌ عن دين الآباء وتقاليد العرب ، فاحذر المُضىّ فيما أنت فيه ، وارجع إلي دين آبائك وأجدادك ، وإلا عَدَتك العرب وثابوا لقتلك ، ولن نحول بينهم وبينك .

وأثارَ الكلامُ حَمِيَّةَ أعْمامه ، فقال أحدهم : يا محمد ينبغى أن ترجع عما تدعو إليه ، وأن تعود إلى صوابك وإلا منعناك نحن .

وَجَمَ النبى (ﷺ) وأدرك أن الفُرصة غير مُوائمة للحديث معهم . . فقد كان الجو مُلبَّداً بالغضب والقلق ، فآثر النّبى الصمتَ على مضَض .

وبعد أيام دعا النبى بنو عمومته إلي مأدُبة عَشاء ، فحضرها بنو هاشم وبنو عبد المطلب . وعندما فرغوا من طعامهم قام النبي متحدثاً فقال بعد أن حمد الله :

تعلمون أن الرائدَ لا يكذب أهله ولو كَذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامةً، وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه فقال : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ .

وأنا أدعوكم إلي أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، والله لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتُبعثنَّ كما تستيقظون ، وإنها للجنةُ أبداً، أو النار أبداً .

يا بنى عبد المطلب والله ما أعلمُ إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه فأيُكم يُجيبنى ويُؤازرنى على القيام به .

كان القوم يُصغُون إلي النبى فى دهشة . فمنهم من لانَ عقلهُ ، ومنهم من استشاط غضباً وغيظاً .

وقال أبو طالب ، وقد رقَّ قلبه لابن أخيه ـ الذى كان يرعاه يتيماً ، وأوصاه جده عبد المطلب به خيراً : امض إلي ما أمرتَ به، فوالله لا أزال أحُوطُك وأمنعك ، غير أنى لا أستطيع فراق دين آبائى وأجدادى . .

وهنا ثار أبو لهب واشتدَّ غيظُه وصاحَ مُهْتاجاً : هذا والله هو العار، خُذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ، وإن منعتموه قُتلتم .

وقالت عمته صفية وقد صَفَا قلبها : أيسرُّك خُذلان ابن أخيك يا أبا لهب ؟ . .

ألا يسرك أن يخرج من صُلْب عبد المطلب نبىٌ ؟

فأشاح بيده وصاح بغيظ أشدّ : هذا والله هو الباطل بعينه ، فماذا

أنتم فاعلون إذا ثارتْ قريش لدينها ، ووقفتْ العربُ معها ؟

ونهضَ علي بن أبي طالب ، وكان لا يزال صبياً ، وقال : أنا يا رسول الله عونك . أنا حربٌ علي من حاربْتَ .

ابتسم بعضهم ساخراً وقهقه بعضهم مُستهزئاً ، واكتفى قلةٌ منهم بالنظر إلى أبي طالب وولده ، ثم انصرفوا من لَدُنْه وهم حائرونَ ، غير أن أبا لهب خرج يَرطنُ بكلام كثير ، ويتوعدُ محمداً بالشر ، ويصدُّه عن دعوته ما استطَاع .

دخل النبى (ﷺ) على زوجته خديجة حزيناً كئيباً ، يحمل هماً كبيراً ، ويحدثها عن خُذْلان عشيرته له وعدم استجابتها لدعوته ، وهى تخفف عنه وتصبِّرهُ :

« هَوِّنْ عليك يا رسول الله . . سيجعل الله بعد عُسْرٍ يُسراً »

انتقلَ النبى (ﷺ) بعد دعوة عشيرته وقومه إلي دعوة أهل مكة جميعاً فصعد جبل الصفا ذات يوم ونادى بأعلى صوته :

ـ يا معشرَ قُريش . . يا معشرَ قُريش .

وتساءل القوم : من ذا الذى يهتف هناك فوق الجبل ؟

قال بعضهم : إنه محمد يهتف . . دعنا نذهبْ إليه لنرى ما الأمر ؟ وأقبلوا إليه يسألون ماله ؟

قال النبى : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفحِ هذا الجبل تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ . .

قالوا : نعم . . أنت عندنا غير مُتَّهم وما جَرَّبنا عليك كذباً قط .

قال النبى : فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد ـ وراح يدعو كل قبيلة . .

يا بنى عبد المطلب . . يابنى عبد مناف ، يا بنى زُهرة ، يا بنى مخزوم ، يا بنى أسد إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعةً ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله . وهنا صاح أبو لهب غاضباً مُسْتهزئاً كعادته : تبّا لك سائر هذا اليوم . .

ألهذا جمعتنا ؟!

وانصرفَ القومُ يضربون كفّا بكف وهُم يظنون بمحمد الظنون ، وعاد محمد إلى داره واجماً وانياً حَزيناً . وهو يُردِّدُ فى سِرِّه : اللهم اهْد قومى فإنهم لا يعلمونَ .

وباتَ النبى هذه الليلة وهو يعتصرُ حُزْناً ، فقد سَخرَ منه عمه أبو لهب وسفَّه عقله ، ، مما جعل القوم ينصرفون عنه هازئينَ .

وجاءه الوحى بقول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ .

كانت أم جميل امرأة عمه أبى لهب تؤذى النبى وتضع فى طريقه

الشَّـوك ، وأمـام داره الأذى ، وكـان النبى يرفع هذا الأذى بيـديه الشريفة ، وهو يفوض أمره إلى الله . فلما نزلت الآيات السابقة على النبى ، أزالت كثيراً من الكآبة التى أصابت النبى وجعلته يمضى فى دعوته غير عابئ بشىء .

كانت دار أبى لهب تجاور دار النبى صلى الله عليه وسلم . وكان النبى قد زوج ابنتيه رُقية وأم كلثوم من ابنى عمه أبى لهب عتبة وعُتيبة قبل نزول الوحى عليه بسنوات لتوكيد أواصر الرحم .

ولما كانت أم جميل قد اشتد بها الغيظ والحقد من النبى وطَاشَ صوابها ، فكانت تُمسى وتُصبح على إيذاء النبى بكل السُّبل الحقيرة ، وكـانت تُنشـدُ فى غـرور . وإمـعـاناً فى الكِبْـر والعناد : مـذمماً قَلَيْنا (كرهنا) ودينه أبينا وأمْره عَصَينا .

ودخل عليها ذات مساء ابنها عتبة وسألها : من هذا الذى تعنيه بالذم يا أمى ؟

فردَّتْ عليه أم جميل بسخرية ومكر : إنه المجنون والد زوجتك رقية .

ـ أتقصدين محمداً؟!

ـ نعم هو ما أقصد

ـ أما يكفيك ما تضعينه فى طريقه من أذى يا أمى؟

ـ كلا . . لا يكفينى . . إن قلبى يحترق غيظاً ولن يهدأ لى بال أو يقرَّ لى قرار حتى تُطلِّق أنت وأخاك عتيبة ابنتيه .

ـ لكن ما ذنب ابنتيه يا أمى . . ؟! . . كما أننى أعيش مع زوجتى فى أمان وفاق ، وأخى عتيبة يعيش مع زوجته فى هناءة . إن رقية وأم كلثوم كما تعلمين يا أمى من خيرة النساء ، وأوفرهن جمالاً وأدباً .

ـ دعك من هذا الهُراء . . يجب أن تطلقاهما وأن تعيداهما إليه كما قلت . وانصاع عتبة وعتيبة لأمر أم جميل .

وعادت رقية وأم كلثوم إلى بيت النبى ـ واحة الإيمان ـ وتجدان فى الإيمان بالله وبرسوله خيراً كثيراً ، وعِوَضاً عن الحياة فى بيت أبى لهب .

وسُرعان ما يتزوج عثمان بن عفان من رقية (رضى الله عنها) وتعيشُ معه فى جهاد وصبر وحُب .

شاع حديث الدين الجديد فى مكة بعد خطبة النبى على جبل الصفا ، وتحدَّثَ الناسُ عنه فى مجالسهم ، وذهب الناس مذاهب شَتَّى ، منهم من سعى إلى النبى يستوضحه أمر هذا الدين ، ومنهم من صدَّ عنه صُدوداً وأعرض عنه .

غير أن المسلمين الأوائل الذين كانوا يستخفون من الناس بعبادتهم ، سرَّهم جَهْرُ النبى بالدعوة ، وأخذ المسلمون يتحدثون عن الإسلام جهراً بعد أن كانوا يتهامسون به همساً .

وشَعر أشرافُ قريش بما فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم من خطر على مكانتهم ورأوا أن يحاربوه بالحطِّ من قدره وتكذيبه، وراحوا يسألونه أن يأتى بمعجزات مثل مُعجزات موسى وعيسى لكى يُثبتْ بها رسالته .

قالوا : ما بالهُ لا يُحيلَ الصَّفا والمروةَ ذهباً .

وقال بعضهم : لماذا لا يأتى بالله والملائكة نراهم رأى العين؟

وقال آخر : لماذا لا يكون له بيتٌ من ذهب أو فضة؟ . . لم لا يفجر لنا من الأرض ينبوعاً سائغاً عذباً مثل بئر زمزم يكون أجْدى علينا وأنفع لنا . وراح بعضهم يُسرف فى السخرية والمزاح ويقول : لماذا لا يوحى إليه ربه أثمان السلع أيضاً؟

فأنزل الله الوحى ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وحدا ذلك بالنبى إلي أن يذكر آلهتهم . . إنهم يطلبون من النبى إثبات رسالته بالخوارق . .

وهذه آلهتهم ليست سوى حجارةً صمَّاء أو خُشُباً مُسَنَّدة لا تملك لهم ولا لنفسها نفعاً ولا ضراً . فليسألوها ما يطلبون . . فليسألوا اللاَّت والعُزَّى وهُبَل؟ وبلغ أشراف قريش أن محمداً صلى الله عليه وسلم سبَّ آلهتهم وعابها ، فاجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى الأمر . . إن محمداً أصبح يُؤلب عليهم أهل مكة ويسخر من آلهتهم

ويصرف الناس عنها . . إن الأمر جَدٌّ خطير لا ينبغى السكوت عليه وقام رجل وقال : إن أتباع محمد يزيدون ، ويتطاولون فى البنيان ، ولوظللنا ساكتين لكانت السيادة لهم ولا سبيل لصدِّه عن دعوته إلا بالخلاص منه . ونهضَ شيخٌ وقال : لا ينبغى أن نفكر فى الخَلاص من محمد أو التعرض له بالأذى حتى نتجنب غضب بنى هاشم ، وأرى أن نسعى فى إصلاحه ومحاورته باللِّين والحِكْمة لعلَّه يرجعُ عن غَيِّه ويعود إلى الآلهة .

قالوا : ومن ذا الذى يستطيعُ ذلك؟

واتفقوا على أن يُرسلوا إليه رجلاً داهيةً من سَادتهم وهو عُتبة بن ربيعة . إذ له من وافر الحكمة وسعَة الحيلة ما يجعله كُفؤاً لهذه المهمة . وذهب عتبة بن ربيعة إلى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وجلس يحدثه بلطف ولين قائلاً :

«ياابن أخى . . إنك عندنا رفيع المنزلة ، كريم النسب ، وإنك قد أتيت القوم بأمر عظيم فَرَّقتَ به جماعتهم وسفَّهتَ به أحلامهم، وسخرت من آلهتهم ودينهم .

وأنا جئت إليك لأعْرض عليك أموراً فاسمع منى » .

فقال ﷺ : قل يا أبا الوليد . . وأنا لك مُصْغٍ .

قال عتبة : «يا ابن أخى . . إننا قد علمنا ما تدعو إليه إن كنت تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا

مالاً ، وإن كنت تُريد به شرفاً وجاهاً سوَّدناكَ علينا ، حتى لا نقطعُ أمراً دُونك .

وإن كُنتَ تريد به مُلْكاً ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » . ونظر عتبة إلي النبى ينتظر رده .

فقال له الرسول ﷺ : أفَرِغت من كلامك يا أبا الوليد؟

قال عتبة : نعم

قال رسول الله : فاسمع منى يا أبا الوليد ، وأخذ يتلو عليه آيات من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ إلى آخر سورة فصلت .

كان عُتبةُ ينُصتُ فى دهشة ، وقد بدا فى هيئة المذهول ، واضعاً يديه من وراء ظهره ، وحين وصل النبى فى قراءته إلى آية السجدة ، نهض وسجد ودعا الله ثم قال : قد سمعتَ يا أبا الوليد ، فأنت وذاك .

عاد عُتْبة إلى قومه خائراً حائراً لا يدرى بماذا يحدثهم وماذا يقول لهم . وعندما رآه أحدهم ذاهلاً قال : أحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذى ذهب به .

وعندما جلس إليهم فى صمت ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال : ورائى أنى سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ . والله لا هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . . إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو ولا يُعْلى عليه .

يا معشرَ قُريش . . أطيعونى واجعلوها بى . . وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأٌ عظيم ، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُه مُلككم، وعزُّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

فقالوا : سَحَرك يا أبا الوليد بلسانه؟

قال : هذا رأى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم .

وأحزنَ أشرافُ قريش هزيمةَ أبى الوليد برغم دهائه، وفى هذا مُؤشر لهزيمتهم أمام دعوة النبى . ماذا يعملون ؟ . . إن الأمر يزداد خطورة ولابد من التَّصدى له . وخرج أبو سفيان مع وفَد من أشراف قريش إلى أبى طالب (عم النبى) .

وقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا . . يا أبا طالب . إن لك شرفاً وجاهاً ، وإننا لم نعد نصبر على ذلك ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تُخَلِّى بيننا وبينه .

ألان أبو طالب لهم القول، وردَّهم ردًا جميلاً على وَعْدٍ منه بأن يُكلم ابن أخيه (محمد ﷺ) فى هذا الأمر .

كان أبو طالب فى موقف صعب ، فهو يحب ابن أخيه ، ويذود

عنه ويقف بجانبه ، وإن لم يسلم لدعوته ، وفى الوقت نفسه يَعِزُّ عليه فِراق قومه وعداوتهم .

وكان النبى ﷺ يشتد فى دعوته ويجدُّ فى نشرها ، وأشراف قريش يرون ذلك فيطيش صوابهم ويسعون فى حيلة جديدة للوقوف دون هذه الدعوة والقضاء عليها .

وذات يوم ذهب فريقٌ منهم ومعهم «عمارة بن الوليد بن المغيرة» وكان أكثر فتيان قريش فُتُوَّةً ونَضارةً وجمالاً ، وقالوا له :

ـ يا أبا طالب ، هذا عماره بن الوليد بن المغيرة خُذْه واتخذْه وَلَداً لك ، وسلِّمنا بدلاً منه ابن أخيك ، فنقتُله ، فإنما هو رجلٌ برجلٍ ، نظر إليهم أبو طالب ساخراً وقال :

ـ والله لبئسَ ما تَسُومونني . . أتَعطونني ابنكم أطعمه لكم ، وأعطيكم إبنى تقتلونه ؟! . . هذا والله لن يكون أبداً . أرأيتم ناقةً تحنُّ إلي غير فَصيلها؟

وانصرفَوا من لَدُنْه فى خزْى وغَيْظ .

وأدرك أبو طالب ما وصَلَ إليه الأمر من التحدى ، وذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما دار بينه وبين قريش ، ثم قال وهو حزين :

ـ يا ابن أخى . . ابق علىّ وعلى نفسك ، ولا تُحَملنى من الأمر مالا أطيق . وأطرق النبى إطراقةً طويلةً وتغيَّر وجهه ، وخيَّم على المكان صمت حزين ، وفكر النبى وظن أن عمه قد خذله وتخلى عن نُصرته .

ثم التفتَ إلي عمِّه بعد أن أخذ نَفَساً عميقاً ، واستجمع إرادته وقال لعمه بيقين وبهدوء أشدُّ باساً من قَصْف الرياح :

ـ يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهْلك دونه.

وأذهل الردُّ أبا طالب، وفى هذه اللحظة نهض النبى وقد خنقته عَبْرةٌ، وهمَّ بالخروج، وهنا انهمر طوفان المشاعر، واضطرب قلب أبو طالب، وقام يستوقف النبى ويُطَيِّبُ خاطرهُ ويقول بصوت حزين كأنه يعتذر:

«إذهب يا ابن أخى فقُل ما أحببتَ، فوالله لا أُسلمك لشىء تكرهه أبداً».

وجَدَ أبو طالب فى موقف ابن أخيه (محمد ﷺ) من الحزم والعزم ووضوح الرُّؤية ما دفعه إلى الوقوف بجانبه مهما بلغ الأمر، ودعا بنى هاشم، وبنى المطلب وعرض عليهم ما قاله النبى له، وما قالته قريش، وشاورهم فى الأمر.

وطلب منهم أن يمنعوا محمداً من قريش، وأن يقفوا صَفّاً واحداً وراء محمد (ﷺ)، فاستجابوا له جميعاً، ورأوا فى الدفاع عن محمد دفاعاً عن كرامتهم وشرفهم، مهما كلفهم ذلك.. إلا واحداً هو أبو لهب فقد صارحهم بالعداوة، وانحاز إلي قريش ضدَّ عشيرته وابن أخيه وهنالك وقفتْ قُريش كلُّها وجهاً لوجه مع بنَى هاشم وفيهم النبى، وصمد بنو هاشم ببسالة، وتحمَّلوا فى سبيل ذلك الأذى والعَنَت.

خرجتْ قُريش عن صَمْتها وصَوابها ، وراحت تنتقمُ من المسلمين وتُضيِّقُ عليهم وتُؤذيهم ليرتدوا عن الدين الجديد، وأسرعوا إلى ضُعفاء المسلمين يَسُومونهم ألوان العذاب بالضرب والجوع والعطش وبالنار، وبجرهم على الرمال الملتهبة فى الرمضاء .

كان بلال عبداً حبشياً، وكان خادماً لأمية بن خلف وكان قد أسلم، وكان يتسلل خُفْيةً إلي رسول الله تحت جُنْح الظلام ، أو تحت ستار من ضوء النهار ويجتمع برسول الله وبإخوانه المسلمين يتعلم منهم ويصلى معهم.

وعلم أمية بإسلام خادمه بلال ، فاستشاط غضباً ، وثار ثورةً هائلةً وراح يجلده ويجرُّهُ ببطحاء مكة فى شدة القيظ من أجل أن يعود إلى دين الآباء ويرتد عن دينه، وبَلال يردد : أحدٌ . . أحدٌ.

فيطرحه أمية على الرمضاء موثقاً يديه ، ويضع صخرة كبيرة على صدره . الشمس الملتهبة تلفح وجههُ الأسود ، وتَحرقُ جَسَدهُ العارى، والصخرةُ القاسية تَدقُّ صدره، ويسأله أمية فى كَبرياء : ألا تعود إلى دين آبائك أيها العبد الآبق؟!

وبلالُ يردد فى ثبات وصَبْر : أحدٌ . . أحدٌ .

فيقول له لا تزال هكَذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعُزَّى فيردد : أحد . . أحد.

ويمرُّ به أبو بكر ويراه على هذا الحال من الهَوان والأذى ، فيُشفقُ عليه، ويَرْثى لحاله ويخاطب أمية قائلاً : ألا ترحم هذا المسكين . . أى جُرْمٍ جناه ، وأى إثم أدَّاه؟!

ويرد أمية فى غرور : لا شأن لك بهذا . . إنه عبدى أفعل به ما أشاء، فما أفسده إلا أنت وصاحبك .

ـ وحتى متى تجعله غَرَضاً لبلائك وعذابك؟!

ـ حتى يرتدَّ عن دينه ويعبد اللات والعُزَّى . . أنَقذهُ مما ترى إن كُنتَ تريد .

ـ أنا أشتريه منك .

فيوافقُ أمية ، ويشترى أبو بكر منه بلال ، ويُعتقه فى الحال لوجه الله تعالى .

وكان عمَّارُ بن ياسر من أوائل الذين أسلموا ، فقد أسلم مع أبيه وأمه وكان يعيش فى كَنف بنى مخزوم ، وحينما علموا بإسلامهم وإعراضهم عن عبادة الأوثان ودين الآباء ، أخذ أبو جهل يذيقهم سوء العذاب بسياط تَمزقُ الأجساد ، وتحت لهيب الشمس الحارقة ، ويكاد ياسر أن يموت من هَوْل العذاب ، ومن شدَّة العطش .

ويَمرُّ بهم رسول الله ﷺ ويراهم على ما هم فيه فيقول لهم : صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة . ويشتدُ إيلام المشركين لآل ياسر حتى تُغلظُ سُمَيَّة (زوجة ياسر) القول لأبى جهل، فيطيشُ صَوابه، ويطعنها بالحربة فى قلبها فتخرُّ شهيدةً فى سبيل الله ، وتكون أول شهيدة فى الإسلام .

ويطلبُ المشركون من عمار أن يَسُبَّ رسولَ الله ، ويُعَظِّم اللاَّتَ والعُزَّى فيأبى ، فتنهمر عليه السياط قاسيةً، أشد إيلاماً من ألسنة اللهب . ويخرُّ عمار مَغْشياً عليه .

ويتواصل العذاب ، ولا يحتملُ عمار تلك الأهوال ، فيقول ما يريدون، فيتركوه فيأتى إلى النبى ﷺ باكيا نادماً ، ويسأله النبى : ما وراءك ؟

فيقول : شرٌ يا رسول الله . ويَعْرض على النبى ما أجبره عليه المشركون .

فيسأله النبى : كيف تجد قلبك؟

فيقول : أجده مُطمئناً بالإيمان .

فيمسح النبى دموعه ، ويقول له : يا عمار إن عادوا فَعُدْ .

وينزل الله تعالى ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان ﴾ .

وكان صهيب بن سنان الرومى من أصحاب النبى الذين عُذبوا . وكذلك عامر بن فهَيرة ، وخبَّاب بن الأرتّ ، كان المشركون يعذبونهم عذاباً مهيناً حتى جاء خباب ذات يوم إلى النبى وهو يتوسد ببردة فى ظل الكعبة وقال له :

ـ «يا رسول الله . . ألا ترى ما نحن عليه من العذاب ، ألا تدعو الله أن يخفف عنا»

فتغير وجه النبى وقال : « لقد كان من كان قبلكم ليُمَشَّطُ بأمشاط الحديد ما دونَ عظامه من لحم أو عَصَب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويُوضع المنشارُ على مفْرق رأسه فيُشَقُّ اثنين ما يصرفه ذلك عن دينه . . وليُتمنَّ الله هَذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل ، والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون . عندئذ اطمأن قلبُ خبَّاب .